تأثير الشعر الأندلسي على الأدب الفرنسي

بحث مقدم من الدكتــورة
نجلاء أحمد محمد يونس

مدخل
الأندلس حدث حضاري في العصور الوسطى
المدارس والمساجد للتعليم
الشعر الأندلسي
الشعر العربي مترجماً يتردد في فرنسا
التروبادور
الفرسان
لغة العيون
الدور الاجتماعي
الفروسية الحقة تنبع من الحب الحق
التقاليد الرجعية ، وحرية الاختيار

الشاعرين فرجيل وأوفيدا
التحليل النفسي
الشعر الغنائي العاطفي
الحقيقة التاريخية والخيال القصصي
الإناء المقدس
الحب الدنس الرخيص
من خصائص الأدب العربي
الفروسية العربية وأثرها في أوروبا
ملوك أوروبا يستخدمون الفروسية العربية

تعديل من خلال WPS Office

تأثير الشعر الأندلسي على الأدب الفرنسي

مدخل :

كل من يدرس تاريخ الحضارة في العصر الوسيط يعرف و يسلم بأن الأ ندلس كانت موطنا للقاء طويل بين حضارتين ... حضارة إسلامية عربية شرقية من جانب ، و حضارة مسيحية لاتينية أوروبية من جانب آخر ، ويتفق الدارسون أن هذا اللقاء كانت له آثاره التي يمكن رصدها في حياة إسبانيا المسيحية حتى وقتنا المعاصر ،وفي حياة أوروبا الغربية في أخر القرون الوسطى ، ومع بداية عصر النهضة.

وقد كتب الباحثون الإسبان في تأثر إسبانيا بالحضارة الاسلامية كتباً و أبحاثاً عديدة ، لعل أشهرها ما أثاره من نقاش ومعارضة ، ما كتبه العالم الإسباني أميريكوكاسترو Americo Castro فى كتاب صدر بالإسبانية في بيونسايرس با لارجنتين عام 1948م بعنوان Espana ensu historia ثم صدرت بعد ذلك طبعات مجددة بالإنجليزية و الإسبانية .

وكذلك كتب الباحثون الأوروبيون عن تأثير الحضارة الاسلامية في الغرب الا وروبي ، وسجلوا ما ترجم إلى اللاتينية من مؤلفات عربية ، وما دخل عن طريق إسبانيا العربية إلى ذلك الغرب من آثار في فروع العلم المختلفة ، و في نظم الحياة المادية و الاجتماعية والفنية.

و القضية التي لم تطرق حتى الآن هي قضية التأثير العكسي أي تأثير الحضارة المسيحية اللاتينية في الأندلس العربية ، لقد كانت الحضارة العربية في الأندلس أكثر ازدهارا و تقدماً من الحضارة اللاتينية في كثير من الجوانب ، وذلك يقضي بطبيعة الحال إلى أن يكون العطاء من الأكثر تفوقا وأن يكون الاستقبال من هو دونه ، ومع ذلك فإن الظروف التاريخية للحضارة العربية في الأندلس كانت تتيح اتصالا وثيقا لابد أن تكون له بعض النتائج في الحضارة الأندلسية ذاتها منها : أن المنطقة الإسلامية من إسبانيا كانت تشتمل على جماعات ضخمة من المسيحيين يعيشون داخل المجتمع الإسلامي حيث يمارسون شعائرهم الدينية و يحتفلون بأعيادهم ومواسمهم و يحتفظون بتقاليدهم الشعبية ، ويقيمون علاقاتهم الاجتماعية حسب أعرافهم .

ومنها أن اللغات غير العربية ظلت حية داخل المنطقة العربية ، و أن كثيرا من العرب و من المسلمين المستعربين كانوا ينطقون لغات أخرى غير العربية ، ويتكلمون بها في حياتهم اليومية بجانب اللهجات العامية العربية ، ومنها أن الأ ندلس العربية كان يعيش فيها عدد من علماء المسيحية الذين يعرفون اللاتينية و يتدارسونها ، ويعتبرون أنفسهم حملة لهذه الثقافة اللاتينية ، ولم يكن الجدال الديني لينقطع بين العلماء من أهل الملتين ذلك أن الحدود بين المنطقتين العربية و اللاتينية لم تكن موجودة ، وإنما كانت متأرجحة ، بحيث يفاجأ كثير من سكان الدولتين الإسلامية و المسيحية بتغيير تبعيتهم السياسية نتيجة الحروب و التوسع

تعديل من خلال WPS Office

أو التقلص في حدود الدولتين.

ومن الظروف التي ساعدت على ذلك اعتماد أهل الدولتين الإسلامية و المسيحية على مناصرة أخوانهم في الدين ممن هم خارج حدود إسبانيا ، فاعتمد المسلمون على المغاربة وأعتمد المسيحيون على دول العالم المسيحي في أوروبا حيث يتوافق على كلا الجانبين أنصارهم طلبا للجهاد.

الأندلس موطن للقاء حضارتين

لما فتح العرب إسبانيا والبرتغال ، أطلقوا عليهما اسم " الأندلس " ، وتاريخ ا لإسلام في الأندلس حافل بالأمجاد والبطولات ، فقد ظل طيلة ما يقرب من ثمانية قرون يحمل مشعل الحضارة لأوروبا كلها ، ويقيم العمران ، وينشر المدنية والعدل في ربوع البلاد ، وقد دافع عن كيانه حتى آخر أيامه هناك دفاعاً باسلا ً ... ولكن شاءت الأقدار أن تحل المأساة الدامية ، ويغادر البلاد أبو عبد الله آخر سلاطين بني الأحمر في غرناطة مغلوباً على أمره عام 897هـ / 1492م ، ويسدل الستار على مجد سامق ، كان من الممكن أن يمتد فيشمل أوروبا كلها([1]).

وهناك إجماع بين المؤرخين وعلماء الاجتماع على أن فتح العرب للأندلس كان أهم حدث حضاري اجتماعي وقع في العصور الوسطى ، حيث كان هذا الفتح نوراً ورحمة للشعوب الأوروبية جمعاء ، فقد انبعثت من الأندلس حضارة عالمية فاضت على جميع شعوب أوروبا بمختلف ألوان المعرفة من علوم وآداب وفنون ، بعد أن ظلت أوروبا عشرات القرون قبل الميلاد وبعده تخيم عليها ظلمة الجهالة و الفوضى والاضطرابات .

كانت الأندلس منارة للاحتكاك الحضاري بين العرب والأوروبيين ، وكانت بمنزلة مركز تنوير لغرب أوروبا الذي كان يستعمل اللغة اللاتينية آنذاك لغة للعلم و المعرفة ، وقد أصبحت مدينة طليطلة التي استولى عليها الإسبان عام 1085م ، مركزاً مهماً وحيوياً لنقل العلوم ، وترجمة الفلسفة من العربية إلى اللاتينية ، فصارت لذلك كعبة طلاب العلم من أنحاء أوروبا الغربية والوسطى ، وممن كان لهم إسهام كبير في حركة الترجمة والنقل " المطران الفرنسي " و " ريمون Raymond والإيطالي جيرار دي كريمون Gerard de Cremone الذي نقل وحده إلى اللا تينية أكثر من سبعين كتاباً في شتى العلوم ، كما كان هناك مترجمون آخرون من ألمانيا وانجلترا وغيرهما يعملون في ميدان الترجمة ، وقد أنجزوا الكثير من الترجمات ، وأصبحت طليطلة آنذاك مركزاً للترجمة العلمية من اليونانية والفارسية والسريانية إلى العربية ، وظلت طليطلة أربعة قرون أكبر المراكز الثقافية في الأ ندلس .

[1]) د. الخربوطلي ، علي : العرب في أوروبا ، الدار المصرية للتأليف والترجمة 1965م ، ص 18 وما بعدها .

تعديل من خلال WPS Office

المدارس والمساجد للتعليم :

وقد عمل العرب في الأندلس على نشر الإسلام ، وإنشاء المساجد والمدارس ، وتشجيع العلم والأدب والفنون ، حتى قال العالم دوزيDosy : « لم يكن يوجد في بلاد الأندلس رجل أمي واحد في الوقت الذي لم يكن في أوروبا من يلم بالقراءة و الكتابة إلا طبقة القسس » ، وقد أنشأ الحكم الثاني وحده 27 مدرسة مجانية بلوازمها كي لا يبقى أحد من رعيته محروماً من نعمة العلم ، وكانت جامعة قرطبة أشهر من الجامعة النظامية في بغداد ([2]).

ولا تزال آثار المسلمين باقية حتى اليوم في الأندلس ، ومن أشهر هذه الآثار قصر غرناطة الشهير بالحمراء ، وهو قصر فخم من أبدع ما صنعته يد الإنسان ، وله باب من المرمر ، ساحته مرصوفة بالمرمر ، وحيطانه بدروب من الطوب الجيد ، وفي جانبيه أماكن السيوف والرماح المعدة للحرس الملكي الخاص ، ثم تنتهي من هذا الدهليز إلى طرقة ذات ظل وأشجار وأثمار ورياحين ، وبها **قصر الحمراء**([3]) .

وقد أبدع المؤرخون في وصف قصر الحمراء إبداعاً لا مزيد عليه ، وهو يضم عدة قصور تحوي مئات القاعات التي زينت أبدع زينة ، وزخرفت أروع زخرفة ، وفيها من بدع الصنعة في مجال التشييد والبناء والزخرفة ما يشهد بما بلغته حضارة المسلمين في الأندلس من تقدم وازدهار([4]) .

ومن الآثار الإسلامية الباقية حتى الآن في إسبانيا " قصر إشبيلية " وهو قصر فخم ، بابه من خشب الصنوبر ، ومنظره بهيج جداً ، ويقع في وسط بستان عظيم يشتمل على أنواع الأشجار ذات الظلال والثمار ، وفيه برك وغدران متعددة ، وعليها مقاعد ومجالس ، والجدران والأبواب والنوافذ مزينة بالزخارف العربية المحكمة المطلية بالذهب([5]).

ولا تزال توجد حتى الآن قنطرة الوادي الكبير عند قرطبة ، وطولها أكثر من

---

(2) د. مؤنس ، حسين: فجر الأندلس ص 91 .

3)) قصر الحمراء : مبنى عظيم بمدينة غرناطة الأندلسية على تل مشرف على المدينة يتميز بالأبراج التي تطل على الهضبة ، ويحيط به سور ضخم بقيت منه إلى اليوم أجزاء كبيرة ، ويتخلل السور عدة أبراج وأبواب ، والقصر عبارة عن جناحين كبيرين ، الأول يسمى جناح قمارش ، ويضم قاعة السفراء ، وبرج قمارش الذي يعلوها ، والثاني يسمى جناح الأسود ، يتوسطه فناء الأسود ، أقيم القصر في القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي على ضفاف نهر قورة ، وهو النهر الذي يسميه الإسبان Carrera de Daarro . أنظر ، محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ج 8ص184

4)) د. مرزوق ، محمد عبد العزيز: قصر الحمراء ، الدار المصرية ، ص 40 وما بعدها .

5)) د. هلال ، جودة: قرطبة في التاريخ الإسلامي 1962 ، ص 11 .

تعديل من خلال WPS Office

500 خطوة ، وعرضها نحو 20 خطوة ، وعليها حواجز حجرية ([6]).

أما جامع قرطبة ([7])، وهو مسجد عظيم يحيط به سور ضخم ، ارتفاعه نحو 8 أمتار ، ومبني بالأحجار الصلدة والصخور الضخمة ، وارتفاع الجامع نفسه لا يتعدى ثمانية أمتار ، وطوله مائة وثمانية وستون متراً ، وعرضه مائة وخمسة وعشرون متراً ، وسقفه مرفوع على أقواس مزخرفة بالقيشاني ، معقودة على عمد من المرمر الملون الباهر ، وطول كل عمود منها أربعة أمتار ، ويبلغ عدد الأعمدة في الجامع تسعمائة عمود من الرخام المكسو بالذهب واللازورد ، وفي الساحة الخارجية أعمدة عددها مائتان ، وأرض المسجد مرصوفة بأنواع الطوب الملون المحكم ، والمحراب والمنبر من المرمر الصافي تزينها زخارف بديعة ، وعلى المحراب كتبت هذه الآية الكريمة بالخط الكوفي البارز المحلاة بالذهب :

([8])كتبت
تحت هذه الآية بالصفة المذكورة عبارة : " الإمام الحكم أمير المؤمنين" ([9]) .

تلك هي أهم الآثار الإسلامية الباقية في الأندلس (إسبانيا والبرتغال) حتى اليوم ، وهي تشهد بما كان عليه الإسلام في تلك الآونة من قوة النفوذ وامتداد السلطان ، وعلو الذكر ، وارتفاع المكانة ، ولولا ما ألم بالأندلس من اضطرابات وفتن ، وما فشا فيها من شحناء ومتنازعات لامتد الإسلام إلى أوروبا ، واستطاع أن يتوغل فيها .

وفي إسبانيا حتى اليوم ، عدد من المسلمين لا يزالون يؤدون فرائضهم الدينية في البقاع التي شهدت مجد أجدادهم ، وعظمة آبائهم الأولين ، وفيها معهد للدراسات العربية يقوم بخدمة طلاب العلم الذين يرغبون في استكمال ثقافتهم العربية ، كما يبين معالم الثقافة الإسلامية والدين الإسلامي لمن شاء من الباحثين والدارسين .

الشعر الأندلسي :

6)) المرجع السابق ص 33 وما بعدها .

7)) جامع قرطبة : وضع حجر الأساس لهذا الجامع في عهد عبد الرحمن الأول عام 17هـ ، وأتمه من بعد وفاته ابنه هشام ، وكان هذا المسجد موضع اهتمام الخلفاء من بني أمية ومحل رعايتهم ، وتناولوه بالزيادة والتجديد والزخرفة ، وممن كانت لهم أياد تذكر عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد ، وعبد الرحمن الناصر الذي أقام به صومعة عظيمة عام 340هـ ، والحكم المستنصر الذي أقام له ظلمة تقي الناس الشمس وبرد الميضات ، راجع جودة هلال ، ومحمد صبيح : قرطبة في التاريخ الإسلامي ، وزارة الثقافة ، القاهرة 1963م ، ص 33-37.

8)) البقرة : 238 .

9)) المرجع السابق ص 33 ، 34 وما بعدها.

تعديل من خلال WPS Office

الشعر الأندلسي فن من الفنون الجميلة ، مثله مثل التصوير والموسيقى و النحت ، وهو يخاطب العاطفة ، ويستثير المشاعر والوجدان ، وهو جميل في تخير ألفاظه ، جميل في تركيب كلماته ، جميل في توالي مقاطعه ، وانسجامها بحيث تتردد ويتكرر بعضها فتسمعه الآذان موسيقى ونغماً منتظماً ، فالشعر صورة جميلة من صور الكلام .

ويصر أهل كل فن على أن هناك حاسة سادسة تولد مع الطفل ، بها يدرك ما في الصورة من جمال ، وما في الموسيقى من سحر ، كما يتذوق بها ما في الشعر من حسن الخيال وجودة التصوير ، على أنهم مع هذا يرون أن التجارب الخاصة وما قد تتأثر به في بيئاتنا قد يساعد على نمو هذه الحاسة وإرهافها ، كما قد يعمل على انكماشها وذبولها ، وللمسألة في رأيهم ناحيتان : الأولى فطرية تشارك فيها جميعاً إلى حد كبير ، وربما خلفتها فينا رواسب المدنيات المختلفة في تاريخ الإ نسانية ، وورثناها عن الأجيال الغابرة جيلا ً بعد جيل ، والناحية الثانية مكتسبة وهي تلك التي تتكون فينا كأثر مباشر لتجاربنا الخاصة في البيئة ، فالطفل الذي يولد في أسرة تعني بالموسيقى ينشأ وهو أكثر استعداداً لتذوق الموسيقى ، وفهم نواحي الجمال فيها ، وأقدر على الإيقاع من طفل آخر لم تتح له نفس الظروف ، مع أن الطفلين قد يكونان مستعدين بفطرتهما لتذوق الجمال الموسيقي والا ستجابة له ، وقد أجرى بعض علماء الدراسات النفسية تجارب كثيرة على الأطفال والكبار في البيئة الواحدة ، وذلك بأن عرضوا عليهم قطعاً مختلفة من الشعر ، وأسمعوهم ألواناً متباينة من النغم الموسيقي ، ثم كان أن حدثونا عن نتائج هذه الا ختبارات حديثاً طريفاً أكدوا فيه أن هناك قدراً مشتركاً بين الناس من تلك التي تسمى حاسة الجمال ، وأن هذا القدر فطري يولد مع الإنسان ، وليس مكتسباً من تجارب أو دربة ، وأصحاب هذا الرأي لا يطالبون في ذلك القدر المشترك بأكثر من اتحاد في نسبة الذكاء العام بين الأفراد موضع التجربة ، أي أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الذكاء العام وما ينشأ عليه المرء من إحساس بالجمال ، وتفوق أحدنا على الآ خر في هذه الناحية يتكون فيما بعد بالتجارب الخاصة ، أو ما يمكن أن يسمى بـ الدربة والمران .

وهناك فريق آخر من أهل الفن يرون أن الإحساس بالجمال أمر اعتباري شخصي نختلف فيه اختلافاً بيناً ، وهو في كل منا نتيجة لما صادفنا من ظروف وما مررنا به من تجارب ، فالمرء قد يؤثر لوناً على آخر لأن هناك ارتباطاً وثيقاً بين ما يؤثر من ألوان المعرفة والفنون ، وما صادفه من تجارب ، كما قد يؤثر لحناً هادئاً رقيقاً لما يثيره فيه مثل هذا النغم من ذكريات محببة عنده ، كما قد يعجب بقصيدة مغناة لما قد يرتبط بهيكلها العام من أمور أو احداث مرت في حياته الخاصة ، فمقياس الجمال عند هؤلاء يعزى أولا ً وأخيراً إلى ما يمكن أن يسمى بـ الذوق الشخصي المكتسب من التجارب الشخصية .

وللشعر نواح عدة للجمال ، أسرعها إلى نفوسنا ما فيه من جرس الألفاظ وانسجام في توالي المقاطع وتردد بعضها بعد قدر معين منها ، وكل هذا هو ما نسميه بموسيقى الشعر ، ويستمتع الصغار والكبار بما في الشعر من موسيقى ،

تعديل من خلال WPS Office

ويدرك الطفل ما فيه من جمال الجرس قبل أن يدرك ما فيه من جمال الأخيلة و الصور .

ويعزو بعض رجال علم النفس الموسيقى مثل هذه الظاهرة إلى أن الإنسان جزء من نظام الكون العام الذي تبدو كل مظاهره الطبيعية منتظمة منسجمة ، فلا غرابة أن يميل الإنسان إلى كل ما هو منتظم منسجم من الكلام ، ويعزوها آخرون إلى ما في الكلام المنسجم المنتظم من تكرار مقاطع معينة في مواضع معينة ، و التكرار مما يميل إليه الإنسان في كل نواحي النشاط العضلي عندما يستمع إلى المقاطع المغناة من القصيدة يحرك رجليه ويديه ويهز رأسه هزات منتظمة ولا يمل السماع ، وإنما يستمتع بتكراره ويجد فيه كل اللذة والمتعة .

ويرضي ميله إلى التكرار ، هذا إلى أن الكلام المنسجم المنتظم أقل عبئاً على الذاكرة السمعية وأيسر في إعادته وترديده ، والإنسان يشعر بقدرته على ترديد هذا النوع المنسجم في الأصوات ، المكرر في المقاطع ، دون إرهاق لذاكرته السمعية الناشئة القليلة الدربة والمران ، ويكفي أن يشعر الإنسان بتفوقه وقدرته على عمل شيء ليقوم به ويكرر القيام به مرات لا تكاد تنتهي ، مما قد يسأم معه الآ خرون حوله ويضجرون ، وفي كل هذا إرضاء لغرائزه وميوله الطبيعية ، والذاكرة السمعية مرهفة تلتقط كل المسموعات وتعيها ، وتستطيع الأذن البشرية أن تفرق بين 24000 صوت ونغمة وإمكانية إذن الكفيف أكثر من ذلك .

والطفل في السنين الأولى من حياته مرهف الحواس ، وربما كان السمع أكثر حواسه إرهافاً ، إذ يدرب سمعه على مجموعات متباينة من الأصوات لا تكاد تنتهي عند حصر ، فهو لا يزال في مهده غير قادر على التجوال ببصره ليرى ما يحيط به ، يسمع أصوات الكبار في المنزل ، وقد يسمع أصوات الباعة في الطريق ، كما قد يسمع جلبة العربات والسيارات وصفير القطارات ونغمات الموسيقى ، وغير ذلك من أنواع الأصوات التي قد تعرض لأذني الطفل من ولادته ، وفي كل هذا تدريب لسمعه ومران لأذنيه ، فلا غرابة أن ينشأ الطفل مستعداً لالتقاط هذه الأصوات و التمييز بينها قبل أن يدرك معاني مصادرها ، ولا غرابة أن يقول الإنجليز في أمثالهم " الأزيار الصغار ذات آذان كبار " مشيرين بمثلهم هذا إلى الأطفال ، وما يسترعى أسماعهم من كل صوت يرن في محيطهم ، وثقافة الطفل في هذه المرحلة من حياته تكون في الأعم الأغلب عن طريق الأذنين ، فهو يتعلم الكلام عن طريقهما ، وتنمو مداركه عن طريقهما ، وليس أروع في كل حياة الإنسان من قدرته على الكلا م الذي يعيه من سائر المخلوقات ، ويسمو به فوق كل أنواع الحيوان .

وهذا المران السمعي هو الذي يعد الطفل للتمييز بين الأصوات المنسجمة وغيرها مما لا تآلف بينها ولا وانسجام ، يعده لتلقي الكلام الموزون المقفى في غبطة وسرور ، فلا يكاد وهو صغير يسمع الأنشودة مرات حتى يرددها عن ظهر قلب ، وحتى ينشدها ويكرر إنشادها ، على أن استجابة الطفل لمثل هذا الكلام الموزون المقفى يخضع في غالب الأحيان لقدرة ذاكرته السمعية ، فإذا طالت

تعديل من خلال WPS Office

الفقرات قبل أن تتردد مقاطع القافية تاه الطفل الصغير في فضائها الشاسع ، ولم يستطع استساغة ما فيها من وزن وتقفية ، ولهذا نلحظ أنه يميل إلى السجع قصير الفقرات ، وإلى الأبيات قصيرة الأشطر ، وإلى التقفية السريعة العاجلة التي تتكرر بعينها مع كل شطر وفي عدة أشطر ، فإذا كبرت مداركه وبدا يتنبه إلى ما في الكلا م الموزون من معان وصور ، أخذ أيضا يتطلب تنويعاً في القافية ، ومثل الطفل في هذا مثل الأمم البدائية في موسيقاها البسيطة ذات اللون الواحد ، ولا تلبث تلك الموسيقى أن تتعدد نغماتها وتتنوع كلما ارتقت المدارك في هذه الأمة ، ثم قد يصبح هذا الطفل إنساناً ناضجاً مفكراً فيقصر انتباهه على ما في الشعر من صور وأخيلة غير ملق بالا ً لقوافيه ، وتردد الأصوات في أشطره ، وحينئذ قد ينتج لنا كلاماً موزوناً غير مقفى يطلق عليه الشعر المرسل .

ويحدثنا من كتبوا في علم النفس الموسيقي عن كيفية شعور المرء بنغم الك لام فيقولون : إن هناك ميلا ً غريزياً في كل كتلة من عدة مقاطع تشبه الفقرات القصار أو العبارات الصغيرة ، فقد نسمع في عشر من الثواني ما يكاد يبلغ خمسين مقطعاً صوتياً تسمعها الأذن فتلتقطها كتلا ً من المقاطع تطول أو تقصر ، فإذا ترددت في أواخر هذه الكتل الصوتية مقاطع بعينها شعرنا بسهولة ترديدها ، وأحسسنا بغبطة وسرور حين سماعها ، وبعث هذا فينا الرضا والاطمئنان إليها ، وهنا نلحظ سراً من أسرار حبنا للكلام الموزون المقفى ، على أنهم يصرون على وجود تلك التي تسعى بالموهبة الموسيقية ، ويرون أننا نختلف في القدرة على خلق الوزن فيما نسمع ، فمنا من يكتل المقاطع بحيث يسمعها منسجمة متزنة ـ ومنا من يسمعها وقد طغى بعضها على حدود بعض ولا يدرك لها وزناً أو انسجاما ، وهم يضربون لنا أمثلة لهذه الظاهرة فيذكروننا بميل بعضنا إلى تكتيل دقات الساعة او حركات القطار فوق القضبان ، بحيث يكوّن هذا البعض من تلك الأصوات نغماً منسجماً ذا فواصل كفواصل الموسيقى ، وتلك هي القدرة على خلق النغم الموسيقي ، بل يرون أن هذا النوع من الناس قادر على تكوين النغم في خياله دون نطق به أو سماع له ، فكأن هاتفاً خفياً يصيح بتلك الأنغام على مخيلته فتكون نغماً موسيقياً قبل أن تصبح مسموعة مجهورة .

وعلى هذا لابد لسماع الشعر أن يكتل من مقاطعه بحيث يسمعها موزونة منسجمة ، وأن تكون له تلك الموهبة ليدرك كل ما في الكلام من موسيقى ونغم ، وهم يرون لهذا أن القدرة على تذوق ما في الشعر من وزن متوقف إلى حد كبير على مثل هذه المواهب الغريزية على أننا لا نميل إلى المغالاة معهم في هذه الناحية فننسب إلى تلك الناحية الخفية الغامضة التي تسمى حيناً وأخرى بالفطرة قدراً كبيراً من تذوق موسيقى الشعر ، ونحن أميل إلى جعل الأمر أمر الدربة و الذكاء العام أكثر من أي شيء آخر ، ويكفي على الأقل في ناحية موسيقى الشعر أن يعود المرء إنشاد الشعر ، وأن يكون ممن وهبوا قدراً كافياً من الذكاء العام ليدرك تمام الإدراك ما في الشعر من موسيقى ونغم ([10]).

10)) عيد ، رجاء : التجديد الموسيقي في الشعر العربي ، دراسة تأصيلية تطبيقية بين القديم والجديد لموسيقى الشعر العربي ، م ن شأة المعارف ، الإسكندرية 1994 ، ص 9

تعديل من خلال WPS Office

الشعر العربي مترجماً يتردد في فرنسا :

كانت الفرنسية إحدى لغات الترجمة الجديدة بعد ما كانت اللغة اللاتينية هي لغتها من قبل ، في البداية كانت ترجمة قصص ألف ليلة وليلة (1695-1795م) ، في مرحلة أخرى كانت إنشاء الموسوعة الإسلامية لترسيخ الدراسات العربية في فرنسا وذلك حتى 1895م ، وفي مرحلة ثالثة كان للجزائر دور هائل حيث نشأت المدرسة الجزائرية في الاستعراب الفرنسي واقيمت المعاهد الخاصة بالتعريب ، وكانت الجزائر خاصة بالمخطوطات العربية التي استفاد منها الفرنسيون ، أما المرحلة الرابعة نجد بعض الفرنسيين يتخصص بالأدب التاريخي العربي ، والبعض بـ الأدب الجغرافي ، وبعضهم بأديب معين كالجاحظ ، ابن قتيبة ، أو بشاعر كالمتنبي ، وبعضهم بعلم الاجتماع ، وبعضهم باللغة العربية والأدب في فترة من الفترات أو بفرع من فروع الدراسات الإسلامية كالقرآن الكريم والحديث الشريف والتشريع ، وبعضهم اهتم بنشر الدواوين والأشعار وترجمتها ونخص منهم([11]) :

ترجم **دي ساسي قصيدة البردة للبوصيري** عام 1806م ، ونشر معلقة لبيد بن ربيعة مع ترجمتها ملحقة بكتاب كليلة ودمنة ، وله منتجات من شعر ابن الفارض نشرها عام 1822م .

ونشر **كوسان دي برسفال** شرح امرئ القيس عام 1819م ,

ونشر **رينو** عام 1837م بالتعاون مع دوسلان ديوان امرئ القري متناً وترجمة بشروح ومقدمة عن حياة الشاعر نقلا ً عن كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني .

ونشر **دوسلان** عام 1838م مجموعة أشعار الجاهليين .

ونشر **الأب برجس** Barges ديوان ابن الفارض عام 1855م .

ونشر **بوشيه** Boucher ديوان عروة بن الورد في باريس عام 1867م ، ونشر أيضاً ديوان الفرزدق (360 قصيدة من 3000 بيت) متناً وترجمة عن مخطوط في مكتبة أبا صوفيا بين عامي 1870- 1875م .

ونشر **جويار** Guyard ديوان زهير المصري عام 1883م .

ونشر **باسيه** قصيدة البردة مع سيرة الشاعر عام 1894م ، ونشر أيضا قصيدة بانت سعاد لكعب ابن زهير .

وترجم **كارادفو** Carra de Vau قصيدة ابن سينا في النفس عام 1899م ، وترجم أيضاً تائية ابن الفارض 746 بيت .

11)) المقداد ، محمود : تاريخ الدراسات العربية في فرنسا ، عالم المعرفة (1992)، الكويت ص 162-164.

تعديل من خلال WPS Office

نشر **بيريس** Peres ديوان كثير عزة في جزئين مع شرح وتعليقه 1927-1930م .

نشر **ماسينون** ديوان الحلاج عام 1931م ثم قام بترجمته إلى الفرنسية عام 1955م ([12])

ولما شيد العرب صرح حضارتهم في الأندلس خطفت أنوارها أبصار النبلاء في الجنوب الفرنسي ، وحرك في نفوسهم الرغبة في السمو إلى مستوى العرب الحضاري ، بنوا قصوراً أشبه بالقصور الأندلسية ، وفرشوها بصناعات الأثاث العربية ، وأرسلوا صناعهم إلى الأندلس ليتلقنوا من العرب صناعاتهم ، ولم تمنع الحروب التي قامت بينهم وبين جيرانهم الجدد دون الاختلاط بهم في أوقات تهادنهم واقتباس عاداتهم وتقاليدهم ، ولم يلبث ذلك الاختلاط أن أنار أذهانهم ، وهذب نفوسهم ، ونفرهم من همجيتهم القديمة .

وتردد الشعر العربي في أرجاء أوروبا لاسيما فرنسا وإيطاليا ، فأثر فيهم تأثيراً تزايد مع مرور الزمن ، و شد أسماعهم من أنواعه نوع الغزل .

التروبادور

وظهر الشعراء **التروبادور** الذين نظموا قصائدهم على غرار شعر الغزل العربي ، وراجت تلك الأغاني في أرجاء فرنسا ، وترامت أصداؤها إلى ما وراء بحر المانش ، حرك شعر الغزل في أفئدة الفرنسيين مشاعر حب من نوع جديد ... لقد أصبح جمال المرأة يبث فيهم أسمى الأحاسيس ويوحي إليهم بأنبل الخواطر بعد أن كان لا يستثير فيهم إلا الرغبة في تملك الجسد والاستمتاع به ، وأصبح حب المرأة و التدله في حبها بل لقد أصبح حب المرأة دليلا ً على حسن التهذيب وسمو الشعور.

الفرسان :

ومن الطبيعي أن يستثير هذا الحب الجديد تياراً عنيفاً من معارضة المستمسكين بالقديم ، فقد زعموا أنه داء عضال يسري في **أوصال الفرسان** ، ويميت فيهم الشجاعة ، وشدة المراس ، ويستبدل بهما التخنث والجبن والخور ، وظهر وقتئذ في مقاطعة " نورماندیا " بشمال فرنسا شاعر قصاص ألمعي يدعى " **كريتيان دي تروا** " أعرض عن الموضوعات القصصية الخيالية العتيقة ، وكتب قصصاً واقعية رائعة عرض فيها مشكلة الحب الجديد ، ومن أعم تلك القصص منظومته القصصية التي دعاها " أريك وانيد " والتي قال عنها جوستاف كوهين " أنها أولى ليالي شهر العسل الذي تمتع به الأدب الفرنسي في العصر الوسيط " .

تبدأ القصة بذكر الأحداث التي أدت إلى زواج " أريك " وهو من فرسان

12)) المرجع السابق ، ص 162-164.

تعديل من خلال WPS Office

المائدة المستديرة ، " بوانيد " الغادة الجميلة الطاهرة .. والجزء الهام من القصة هو الذي يبدأ بعد ذلك الزواج ... أخذ الحب بمجامع قلب الزوج الفارس ، واتاح التنعم بمتعة لا عهد له بها ، وأذاقه عذوبة لم يتذوق قط مثلها .

لغة العيون :

وصف الكاتب الشاعر خلوة العاشقين في الليلة الأولى لزواجهما ، وحلل مشاعر الحب التي مست شغاف قلبيهما ، وكم ردد من معان تذكرنا بمعاني الشعر العربي ... انظر إلى قوله عن الزوجين الحبيبين **« أبجهتهما العيون بنظراتها** ، وبعثت فيهما الطرب المتولد من الحب ، وارسلت رسلها إلى قلبيهما ، فأعجبا بكل ما أبصراه ... وبعد أن أدت العيون رسالتها تحققت متعة فاقت ما عداها .... تبادلا قبلا ت انتزعها الحب ، وتذوقا عذوبة أطفأت غلة الفؤاد ...».

فكما أن للسان لغة ، فللعينين لغة ، ولحديث العينين دلالات ومعان ... قد تكون العين عاتبة غاضبة حانية ، مشاكسة ، نائمة ، حالمة ، والعيون تكشف عن نفس المرأة وتفضح أسرار قلبها ، وهي مهما حاولت إخفاء انفعالاتها ، تظهر الكثير من الملامح ببريق العينين ، وسرعان ما يقود هذا البريق الآخرين إلى معرفة حقيقة مشاعرها ، ولذا تتنوع نظرات المرأة تبعاً لأنظارها وعاطفتها ، وتصبح العينان مفتاح شخصية المرأة الراضية ، الغاضبة ، الهاربة ، العابسة ، الفرحة ، المحافظة ، غير المبالية ، وقد تجعلها نظراتها تتموج بين الصراحة والغموض ، بين البساطة و التعقيد ، وكما أن بمقدور العيون أن تتحدثا ، فبمقدور المرأة أن تتحكم بعاطفتها في لغة عينها ، في بعض المواقف ،وإذا أرادت المرأة لفت نظر الرجل الذي تحب ليشعر بها كلية ويحوطها بالحب المتبادل ، فما عليها إلا أن تضع قلبها في عينيها ، و المرأة الذكية هي التي تستطيع أن تنقل للرجل أحاسيسها بعينيها دون أن تنطق بكلمة واحدة ، ولكن بنظرة ولهة ومحبة حالمة يشبع فيها النعومة ، ولذا فعيون المرأة مرآة لقلبها ولروحها وأحسن ذخيرة تمتلكها في لغة الحب ... فيقول أمير الشعراء أحمد شوقي **عن جمال العيون :**

السـحر من سود العيون لقيته ... والبـــابليّ بلحظـــهنّ سـ ـــقيته
الفاتنات وما فتنّ رمايةً ... بمسدّد بين الضلوع مبيته الناعسات

الناعِســاتِ الموقِظــاتِ لِلهَوى ... المُغرِيـــاتِ بِهِ وَكُنتُ سَـــليتُهُ

وقد أبدع الشاعر إيليا أبو ماضي حين قال:

رأيت في عينيك سحر الهوى ... مندفعاً كالنور من نجمتين
فبت لا أقـوى على دفـعـ ـه من ... رد عنه عارضاً باليـــدين
يـا جنـــة الحب ودنيا ... ما خلتني ألقاك في مقلتين

تعديل من خلال WPS Office

حقيقة أن " أريك " من فرسان المائدة المستديرة ، أي من أبطال قصص الخوارق ، ولكن عصره قد تغير فتغير هو معه ، وخضع للمرأة عندما هام بها وأحبها ، واستسلم لحبها ، وغاب في شهر العسل عن ميدان القتال ، فزعم الزاعمون أن خضوعه للمرأة واستسلامه للحب أضعفا بأسه ، وأورثاه الجبن والخور ، وصرفاه عن الاضطلاع بواجبه ، وقد أشار كاتب القصة إلى ذلك في عبارتها التالية : « لم يعد يهتم بحمل السلاح ، والتجوال في أنحاء البلاد ، فهو يريد أن يلهو ويلعب مع المرأة التي أصبحت له صديقة وحبيبة ، ولا يمل ذلك أبداً ، وهو يستيقظ من النوم قبيل الظهيرة ، ويستطيب ذلك دون أن يبالي برأي الناس ...» وهذا يذكرنا بقول الشاعر العربي القديم :

إلفان يعنيهما في العيش حبهما ... ولا يملان طول الدهـــر ما اجتمعا

مس ـتقبلان نشاطا من ش ـبابهما ... إذا دعا دعوة داعي الهوى س ـمعا

لا يعجبان بقول الناس قاطـــبة ... ويعجبـــان بما قالا وما ص ـــنعا

ويمضي كاتب القصة في شرح وقائعها فيقول : « وكم تعرض لملامة اللوام من أبطال الحرب والطعان ، وعلمت " أنيد " بما قيل عن خلعه الدرع والسيف ، وهجره ميدان القتال .. لشد ما تغيرت حياته ! »

إن فرسان عصره لا يعترفون بمثل هذا الحب فهو ابن ملك وعليه واجبات ينبغي أن يهتم بها قبل اهتمامه بما يسمونه لهواً وعيشاً ، فإذا أهملها أصبح غير أهل لولاية العهد ، فماذا هو صانع ؟ يستسلم للحب ، ويتخلى عن واجباته ، أم يتخلص من قيود الحب ليكبل نفسه بقيود تلك الواجب ـ أيضحي بحبيبته في سبيل مجده أم يضحي بمجده في سبيل حبيبته ؟ إنه مسئول عن سلامة وطنه ، وأمن رعيته وهو مأخوذ في نفس الوقت بعاطفة عارمة تشغله قسراً عن تلك المسئولية .

وقع " إريك في التناقض الذي طرأ على مجتمع ينتقل من ظلمة الهمجية إلى بداية فجر الحضارة ... رق قلبه ، وتفتح للحب الجديد ، القاهر السلطان ، فاصطدم بالتقليد القديم الذي يزدري الحب ، ويمجد الخشونة والوحشية ... وقع بين اتجاهين فكريين وعاطفيين مضاربين ، واختار طريقه في أول الأمر فانساق وراء تيار الحب ، ولكن إلى متى يستطيع مواجهة اتهامه بالضعف والخور ؟

ووقعت حبيبته " أنيد " في حرج مماثل ،فهي تحب زوجها ، وتود لو بقي إلى جانبها ، ولكنها تسمع الاتهام الموجه إلى زوجها ـ وترى أن ملازمته لخدرها يزعزع

تعديل من خلال WPS Office

مكانته بين الفرسان ، ويضعف هيبته ، وتدرك أنها المسئولة عن ذلك ، أو المتهمة على الأقل بأنها المسئولة عنه ، أنها تقف أيضاً في موقف حرج ، فقلبها موزع بين الا ستمتاع بمباهج الحب ، والتضحية به في سبيل الواجب ، فماذا هي صانعة ؟ أتطلب إلى زوجها أن ينصرف عنها إلى ميدان القتال ؟ ... ليس الأمر هيناً كما يبدو ، فقد يسيئ زوجها الظن بها ، قد يشك في حبها له ، ويتهمها بالتفريط فيه ..ز ثم أنها بالإضافة إلى ذلك تخشى عليه مخاطر القتال ، وتعجز الزوجة المحبة الوفية عن الاستمرار في تحمل مشاعرها المتضاربة ، فتحتضن زوجها وتنهمر دموعها وتتساقط قطراتها على كتفيه ... وتقول متأوهة :« وا حسرتاه ! ... ما أشقاني ! ... ماذا أفعل هنا ؟ كان أولى بي أن أدفن حية قبل أن ينسى أشجع الشجعان فروسيته بسببي ... إني جلبت له العار ، وما كنت لأرضى بذلك حتى في مقابل » ، وعندئذ قال لها " أريك " : « يا صديقتي الشقية » وصمت ...

الدور الاجتماعي:

يرى بعض نقاد الغرب أن عظمة " كريتيان دي تروا " ترجع إلى وقوفه على حقيقة عصره الواقعية ، وعلاقات مجتمعه الحقيقة ، إن مقاومة الفرسان الا قطاعيين للحب الجديد الذي اشتعل في قلب " إريك " لا ترجع إلى أسباب أخلاقية فحسب ، ولكن أسباب سياسية أساسية أيضاً فهذا النوع الجديد من الحب يتناقض مع الدور الاجتماعي الذي ينبغي للسيد أن يلعبه ... وهو يمس ما نسجته الحياة الا جتماعية وقتذاك من علاقات بين الأفراد .

الفروسية الحقة تنبع من الحب الحقيقي :

ولكننا نرى أن عظمة " كريتيان دي تروا " تتمثل في اتخاذه موقفاً تقدمياً من المشكلة الاجتماعية التي يعرضها ، فهو مع الجديد النامي ضد القديم المتداعي ، إن رقة الحب الصادق لا تبعث الجبن والضعف في نفس الفارس العاشق ، ولكنها تزيده قوة وشجاعة ، لقد أظهر هذا الكاتب النافذ البصيرة خلال وقائع قصته ، إن الحب لا يتعارض مع الفروسية ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فقرر أن الفروسية الحقة تنبع من الحب الحق .

لم يتخل " إريك " عن واجبه ، ولم يتخل عن حبه ، فذهب إلى ميدان القتال مصطحباً حبيبته ، وهناك لم يحرص على إبداء شجاعته للفرسان بقدر ما حرص على إبدائها لحبيبته ، ولكن الشجاعة التي بعثها حبه لم تقف عند الحد المألوف ، بل دفعته إلى التعرض لمخاطر لم يكن ثمة ما يدعو إلى التعرض لها .

وينخلع قلب " أنيد " خوفاً على حبيبها ، وترجوه أن ينصت إلى صوت العقل ، ويرجع عن مجازفاته إشفاقاً عليها ، فهي لن تطيق العيش إذا أصابه مكروه ، ولكن الحب لا ينصت إلى صوت العقل ، ولا يقنع بغير تحقيق المعجزات ، إن أحداث

تعديل من خلال WPS Office

القصة تضع حب " أريك " موضع الاختبار ، وتقيم الدليل على أنه سما به إلى مستوى جديد ، وحقق له أمجاداً لم تكن لتتحقق بدونه .

قام الاعتقاد الرجعي في ذلك العهد على أن الحب العاطفي الجديد ، وتقديس المرأة يتعارضان مع تقاليد الفروسية ، فتصدى " كريتيان دي تروا " لتفنيد ذلك الاعتقاد ودلل بأحداث القصة على أن عكسه هو الصحيح .

ولهذا الكاتب الفذ قصة أخرى تطرق أيضاً موضوع الحب الجديد ، اسمها " كليجيه " ولكن الحب فيها يتوج بالزواج كالقصة السابقة ، بل يكابد عذاب الحرمان ، أحبت فتاة جميلة تدعى " فينيس " فتى وسيم يدعى " كليجيه " ولكنها ترغم على الزواج بغيره ، ولا تجد وسيلة للتمرد على هذا الارغام غير امتناعها على زوجها ، وبقائها عذراء مصممة على ألا يمسها غير حبيبها ، وهي تقول في ذلك : « أني أؤثر أن يقطع جسمي أجزاء على أن أعيد سيرة الحب الذي نشب بين " إيزو " و" تريستان " ، وإن ارتكب الأفعال الطائشة التي ارتكبها ، ويمنعني الحياء من ذكرها ، ليس في وسعي أن استسيغ الحياة كل الإذلال حين أمكن رجلين من امتلا ك جسدها ، بينما لم يمتلك قلبها إلا رجل واحد لم حبها مشروعاً ، أما حبي فهو الحب الدائم ، لأني لا أشرك في قلبي وفي جسدي أحداً غير حبيبي ... إن الذي يمتلك قلبي هو وحده الذي يمتلك جسدي ...»

عرض الكاتب في هذه القصة أيضاً مشكلة حقيقية من مشكلات مجتمعه ، وناضل مدافعاً عن وجه الحق فيها ، ندد بالزواج القهري ، وعد تسليم المرأة جسدها لزوج لا تحبه فحشاً ، وأيد حقها في الزواج بالرجل الذي يختاره قلبها .

التقاليد الرجعية وحرية الاختيار :

تصدى للتقاليد الرجعية ، ووقف بجانب المرأة في مطالبتها بحرية الاختيار ، وأشاد بوفائها لمن تحب ، وأسهم بنصيب واف في التمهيد للعهد الذي استردت فيه المرأة الأوروبية آدميتها ، ووطدت مكانتها ، فتمكنت من أن تلعب دورها الهام في دعم نهضة العصر الحديث .

وقد علق الكاتب الفرنسي المعاصر " بيير ديكس " على قصص " كريتيان دي تروا " بقوله : « ينبغي ألا تغيب عنا حقائق هامة التي لا تلقي الضوء على قصة " إريك وأنيد " وحدها ، ولكن على سائر قصص ذلك الكاتب .. فهي جميعها لا تتناول الأقدار ، والكفاح ضد الأقدار ، ولكن تتناول النساء والرجال وتشرح تعرضهم للمتاعب الحقيقية المتولدة من تطور حياتهم ، وبحثهم عن السعادة التي لم تتخذ شكلا ً واضحاً بعد ... وهذا السمو الأدبي المليء بالثقة المعتزة بالإنسان يبدو كزهرة من أزهار الربيع ، تتفتح ولكنها لا تبلغ ذروة تفتحها أبداً ، ذلك لأنها نبتت في عصر استبعد فيه الإنسان الإنسان ».

والمثير في هذه القصص أنها اضطلعت – على وجه التحديد – بالتعبير عما نجده اليوم رائعاً ، إن تمكنها من تصوير الواقع لم يتحقق إلا بقدرتها على ذلك

تعديل من خلال WPS Office

الفرنسي

التعبير الذي استطاع أن يدخل في عالم الأدب أشياء جديدة كثيرة منقولة عن الواقعية ، مثل السعادة الأولى التي يتمتع بها زوجان متكافئان ... إزاء الحب على ا لأقل .

« إن كريتيان رجل يواجه العالم الذي يعيش فيه ، ويجد متعة متزايدة في وصف هذا العالم وتصويره وشرحه ، رجل يشعر بثقة متزايدة في وسائله الفنية الإ نسانية بحسبانه مبدعاً خلاقاً ، ويعمل دون انقطاع على توسيع ميدان كشوفاته ، ويستحق هذا الرجل أن نتتبع ما سجله في قصصه من أوصاف ، كما تتبعها " جوستاف كوهين " ، لندرك أنه كان يطمح إلى شرح الحياة على طريقته ، وكذلك شرح الأشياء التي تحيط به .. كانت له دقة المصور الفنان ،فعرف كيف يرسم خطوط كثير من الصور ، ويصف حتى الحيوانات والبيوت ، ورقة الليل ، وجمال الربيع ».

وآن لنا أن نسأل هل تأثر هذا الكاتب الشاعر ، وغيره من معاصريه الفرنسيين بالأدب العربي ؟ ... وهل أفادوا منه ؟

الشاعرين " فرجيل (70-19ق.م) " و" أوفيد " (43ق.م – 17م) (13) :

قلنا إن كثيرين من المتشيعين للأدب الأوروبي ينكرون تأثره بأي أدب أجنبي ، أو الافادة منه ، فالأدب والفن – في زعم أولئك المتشيعين – نبتا أول ما نبتا في بلاد الإغريق ، ثم أصبح تبعاً للأدب والفن اللاتينيين ، ثم اقتبست سائر الإغريق وال لاتين وحدهما .

إن أولئك المتحيزين ينسبون الفضل المباشر في نهضة الأدب الفرنسي ، خلا ل القرن الثاني عشر ، إلى الشاعرين " فرجيل " ، و " أوفيد " ، ولعل التوسع في مناقشة هذا الادعاء أصبح ميسوراً بعد أن عرضنا قصتي " كيتيان دي تروا " .

التحليل النفسي

قال " بول رينوتشي " في كتابه : " مغامرة النهضة الأدبية الأوروبية ": « أصبح ديوان ميتامور فوز للشاعر اللاتينين " أوفيد " مصدراً لحركة المحاماة ، وإحياء الماضي ، وبعث الموضوعات القديمة ، والرجوع إلى شريعة الحب ،

---

[13]) تأثر فرجيل بجماعة الرواقيين وتقبل أفكار التنجيم باعتدال ، ودرس الطب والرياضيات والتنجيم ، وهناك قصيدة تفصح عن تذوق التنجيم وتلميح بقدوم المسيح مبشراً بمطلع عهد جديد ، معلناً أن طفلا سيولد وتعود معه الأيام الذهبية ، وأن الرخاء سينمو ويعم العالمين ، والقصيدة تنبئه ، وقد اعتقد الإ مبراطور قسطنطين والقديس أوغسطين أن الطفل هو المسيح نفسه الذي أعلن عنه في التوراة ، وقد نظم فرجيل هذه القصيدة عام 40 ق.م ، وكانت معرفة فرجيل بالفلك وأحوال الجو تمثل القصص الشعبي آنذاك .

أما أوفيد فكان ملماً بالتنجيم إلماماً حسناً ، ومع ذلك فقد ظل على شيء من الشك ، وكان من صفوة المثقفين من الرومان الذين يتقبلون خيالات التنجيم .... راجع : جورج سارتون : تاريخ العلم ج 3 ، دار المعارف ، القاهرة 1971م ص 178.

تعديل من خلال WPS Office

ودستور الظرف – هذا هو الكتاب الذي سمي فيما بعد " توراة الظرفاء " – وقد أخذ الأدباء يلتمسون من " أوفيد " أن يمدهم بموضوعات لأعمالهم الأدبية ، ونماذج لمنظوماتهم القصصية ، ودروس في الكياسة ، وآراء في التحليل النفسي العاطفي ، إننا نجد في كل عمل أدبي من أعمال العصر – حتى في قصائد الشعراء التروبادور الذين لم يقبلوا على الأدب الكلاسيكي القديم – بواعث مستمدة من الكاتب المذكور ، وكل أديب لا يقتبس من " أوفيد "موضوع عمله ، يقتبس منه على الأقل فن معالجة موضوعه ، وكم من شاعر بني شهرته على محاكاة مؤلفاته ، أو ترجمتها ... »

يقول " فارال " في هذا الصدد : « هكذا نجد محاكاة الأدب اللاتيني تظهر واضحة في نشأة أول نوع أدبي جديد كالقصة التي تبدو في ظاهرها إنها عمل جديد مبتكر ، وقد نسبوا ذلك الابتكار إلى قصص الشمال الفرنسي ، بيد أن هذه القصص ليست مدينة للشمال الفرنسي في شيء ، إلا إذا استثنينا بعض أجزاء من مادتها » .

الشعر الغنائي العاطفي

أما الكاتب الفرنسي " جوستاف كوهين " فلا يتحيز للدول الأوروبية بعامة في كتابه عن : كريتيان دي تروا " ولا ينسب الفضل في النهضة القصصية التي حمل لواءها إلى الأدبي الإغريقي واللاتيني ، ولكنه يتعصب لفرنسا وحدها ، ويراها مهبط وحي كاتبها الكبير ، فهو يقول : « لم يستوح هذا القاص الفرنسي قصصه إلا من التطبيق العملي ، ومن روح الشعر الغنائي العاطفي الذي شاع في شمال فرنسا وقتذاك ...» .

الحقيقة التاريخية والخيال القصصي

ويقول " جان فرابييه " ، وهو واقع تحت نفس التأثير : « تتميز قصة " كليجيه " بالواقعية البادية عليها ، فليس ثمة أساطير ، ولا حكايات خرافية ، ولا شطحات خيالية متعذرة التصديق ، ولا تركيب سحري غريب التأثير ، وهي تتميز أيضاً بمسحة عامية ، وتجمع بين الحقيقة التاريخية والخيال القصصي ، وإذا كانت أسماء أبطالها إغريقية ، فإننا نجد فيها مجتمع عصرها وواقعه ...»

الإناء المقدس :

وجاراهما " بيير ديكس " إذ قال في كتابه المذكور : « إن أصالة " كريتيان " فرنسية صميمة إلى حد أن الذين اقتبسوا أعماله لم يفهموها حق الفهم ، وقد سبق أن تحدثت عن الأدب الأوربي ، وفي الحق أن ذلك الكاتب بعث قصص " الإناء المقدس " – لهذه القصص أصل عربي أو شرقي – واذاعها في غرب أوروبا ، لقد اقتبس موضوعات تلك القصص ولكنه لم يقتبس الحب الجديد أو سعادة " أريك " و" أنيد " واستقلال امرأة زمانه وجرأتها ...»

تعديل من خلال WPS Office

نخلص مما تقدم إل أن الآراء التي دارت حول قصص " كريتيان دي تروا " ومواطنيه القاصين المعاصرين له اتجهت إلى ثلاثة اتجاهات :

أولاها : أن تلك القصص عاطلة من كل ابتكار ، فهي في أشكالها ومضامينها وأساليبها ومعانيها احتذاء طبق الأصل للأعمال الأدبية اللاتينية ، لاسيما أعمال " أوفيد "([14]) .

وثانيها : أن القصص المذكورة لم تتأثر إلا بالشعر الفرنسي العاطفي الذي تردد في أرجاء نورماندیا وقت ظهورها .

ثالثها : أنها – أي تلك القصص – عكست واقع مجتمعها ، وناقشت مشكلاته متخذة لها قوالب من القصص القديمة.

نرد على أصحاب الرأي الأول بأن قصص الشمال الفرنسي التي افتتحت عهد النهضة القصصية في أوروبا هي من حيث الشكل قصص قديمة أعيدت صياغتها ، فالجدال إذن يدور حول مضمونها فقط ، أهو مقتبس أيضاً من الأدب اللاتيني ، أم من الأدب العربي ، أم هو مبتكر ؟

رأينا أشياع " أوفيد " ينسبون إليه كل ميزة تميزت بها تلك القصص ، فهو الأ ستاذ العظيم الذي لقن من تلاه من أدباء أوروبا مختلف فنون الأدب ، وأمدهم بنماذج أدبية بهرتهم ، فلم يستطيعوا إلا أن ينسجوا أعمالهم على غرارها ، ونحن لا ننكر أثر أي أديب لعب مثل " أوفيد " دوراً فعالا ً في تطوير أدب عصره ، ولكننا ننكر أن أدب أوروبا الغربية لم ينبع إلا من ذلك المصدر .

وقبل أن نناقش أشياع " أوفيد " نقدم نموذجاً من شعره حتى لا نسترسل في قول مجرد غير مرتبط بأساس واقعي ، قال معبراً عن لون الحب الذي لم يعبر عن غيره : « لابد أن زوجك سيحضر وليمتنا ، وأتمنى أن تكون وجبته في هذه الوليمة آخر وجبة ، وعلى ذلك لن يكون لي مناصراً ، يا حبيبتي ، من أن أكتفي كأي مدعو آخر ، بمجرد النظر إليك ستصبح إذن متعة لمس جسدك لرجل آخر ؟ وستدفئين جسداً غير جسدي بتطويقه وضمه في قوة ؟ وسيعانقك كلما حلا له العناق ؟».

الحب الدنس الرخيص :

14)) أوفيد Ovid : شاعر لاتيني ولد عام 43ق.م من أسرة تنتمي إلى الطبقة الوسطى ، درس الخطابة ، واستكمل تعليمه في أثينا ، ثم سافر إلى صقلية وأسيا ، وقد عاش في عصر الامبراطور أوغسطس وتمتع بعطفه ورضاه ، ثم نفي عام 9 ق.م إلى منطقة البحر الأسود ، وربما كان ذلك بسبب قصيدة غرامية تسمى فن الغزل ، وتوفي في المنفى عام 17م ، وله من العمر 60 عاماً ، ولأوفيد أعمال كثيرة متعددة ، نسيم يوسف ، جوزيف : معالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، 1990م ، دار المعرفة الجامعية ، الإ سكندرية ص 360.

تعديل من خلال WPS Office

لا يعبر " أوفيد " إذن عن الحب الذي عبرت عنه تلك القصص ... لا يعبر عن حب نبيل مبعثه العطف ، والاعجاب والتقدير وسياجه الصدق والوفاء ، وهدفه تحقيق أشرف الغايات ، ولكنه يبشر بحب دنس مبعثه الشهوة الرخيصة ، وسنده الكذب و الخيانة ، وعاقبته التجرد من الفضائل الإنسانية، والانحدار إلى وهدة البهيمية، وتقطيع أقدس الروابط البشرية .

إن كتاب " فن الحب " يشرح للفاسق كيف يتصيد زوجة صديقه ويشككها في الفضيلة ويزين لها المعاصي ويحملها على ارتكابها .

ولا يلتمس أحد العذر لهذا الشاعر على أساس أنه إنما رسم صورة واقعية لمجتمعه ، فلا ذنب له في ذلك إلا تمسكه بالصدق الفني ، فهذا العذر مردود بأنه – أي " أوفيد " – لم ينظر إلا إلى جانب الفساد من مجتمعه ، واقتصر على رسمه دون الجوانب الأخرى ، فأعطانا فكرة غير أمينة عن ذلك المجتمع ، وهو لم يكتف بتصوير الفساد ، ولكنه افتن في تزيينه ، وفي التحريض على الانغماس في حمأته ، وإذا كان هدفه حقاً أن يعكس صورة كاملة صادقة لمجتمعه لما فاته أن بين ظهرانيه زوجات فاضلات يخلص لأزواجهن ، وفتيات عفيفات تخفق قلوبهم للحب الطاهر ، وأن هؤلاء الزوجات والفتيات جديرات أن يشغلن جانباً من تلك الصورة حتى لا يقال أن نساء عصره جميعاً عاهرات ليس بينهن امرأة وفية مثل " بينلوبي " .

يبدو مما تقدم أن الحب الطاهر الصادق الذي عبرت عنه القصص التي عرضناها لا يمت بأية صلة إلى الحب الفاسق الغادر الذي بشر به " أوفيد " .

إذا عدت إلى الأعمال الأدبية الإغريقية – وهي التي يزعم شعراء أوروبا المتشيعون لأوروبتهم أنها المصدر الأصلي لمختلف النهضات الأدبية – لا نجد شيئاً منها يشرح عاطفة الحب الشريف ، وفي هذه الحالة ينبغي أن يبحث الباحثون عن مصدر غير هذه المصدرين لنهضة الأدب الفرنسي في القرن الثاني عشر .

أما الاتجاه الثاني الذي يزعم أصحابه – وعلى رأسهم " جوستاف كوهين" – إن " كريتيان دي تروا " استمد موضوعات قصصه من التطبيق الواقعي ، واقتبس أسلوبها من الشعر الغنائي العاطفي الذي شاع في الشمال الفرنسي وقتذاك ، فلا اعتراض لنا عليه في ذاته ، ولكننا نسأل ألم يهتد ذلك الكاتب بغيره في شق هذا الطريق الجديد ؟ أفطن من تلقاء نفسه إلى اتخاذا مشكلات الواقع ، لا تصاوير الوهم ، مصدراً لقصصه ؟ ونسأل أيضاً أنشأ الشعر الغنائي العاطفي محلياً في شمال فرنسا ، وترعرع عن طريق التطور الطبيعي ، أم نبت من بذور أجنبية ؟

يصعب أن نسلم بأن الأدب الفرنسي تحول فجأة في تلك الحقبة من أدب أسطوري أو أدب وهمي ، إلى أدب إنساني عاطفي واقعي دون أن يكون ثمة عامل مستجد من عوامل التغيير ، أن مثل هذا التحول لا يتم عادة إلا بعد تمهيد طويل ، فإذا وقع فجأة فلابد أن يكون وراء ذلك عامل طارئ ، وفي هذه الحالة يتعين على

تعديل من خلال WPS Office

الباحث الذي يتحرى الحقيقة ، ويحرص على كشفها أن يبحث وينقب عن هذا العامل الطارئ .

وهل يكون من قبيل المصادفة أن ينتشر في فرنسا ، وفي موطن القصص المذكورة بالذات – قبيل ظهورها مباشرة – شعر عاطفي واقعي لم يسبق له نظير يشبهها كل المشابهة في شكله ومضمونه ؟ وهل نكون على صواب إذا قلنا أن مؤلفي تلك القصص لم يقرأوا الشعر المذكور ، ولم يتأثروا به بل ولم يحتذوه على الرغم من تطابق أسلوبه وأسلوب قصصهم ومعانيه ومعانيها ؟

وقد لاحظ الباحثون أوجه شبه واضحة بين القصص العربي الخيالي وبين بعض القصص التي عرفتها أوروبا في العصور الوسطى ، مثل قصة إيزولد ذات اليد البيضاء ، وقصة فلورا والزهرة البيضاء ، وتتضح الروح العربية في القصة الأخيرة بوجه خاص ، وهي شديدة الشبه بالقصة الشائعة القاسم ونيقولت التي لا يرقى الشك إلى اصلها العربي كما هو واضح من اسم بطلها القاسم ، ولا عجب فالعرب هم الذين ابتدعوا روايات الفروسية في الأدب ، ولذا استطاع الأدب العربي أن يؤثر تأثيراً واضحاً في القصص الأوروبي ، كما أن القصص الخرافية ذات المغزى الأخلاقي أو التي تتخذ الحيوان موضوعاً لها ، وهذا اللون من الأدب شرقي ، عرفه العرب قبل أن يظهر الأدب الأوروبي بقرون طويلة ، وكان الأدب الإسباني هو أول ما تأثر بالأدب العربي ، فنقل بطرس الفونس اليهودي من العربية إلى الإسبانية مجموعة قصص هندية ، وفي سنة 1251م ترجمت من العربية إلى الإسبانية أيضاً مجموعة القصص الهندية المعروفة باسم كليلة ودمنة ، وأعقب ذلك بقليل ترجمة قصص الحكماء السبعة عام 1253م ، ثم كثرت بعد ذلك تراجم الحكم والقصص الخلقية وانتشرت في أوروبا بوجه عام .

من خصائص الشعر العربي

لقد تزايد في أيامنا الحاضرة عدد المفكرين الأوروبيين المنصفين الذين اعترفوا بأن الشعر المذكور الذي هبت نفحاته من الأندلس وذاعت في فرنسا ثم في انجلترا ، وهو الذي أضاء الطريق لنهضة أوروبا التي بدأت في القرن الثاني عشر ، وكل من يمتحن خصائص أدب تلك النهضة يجد أنها هي بعينها خصائص الأدب العربي وأنها في نفس الوقت مختلفة كل الاختلاف عن خصائص الأدبين الإغريقي واللاتيني ، ولاشك أن هذه الحقيقة تحتاج إلى شرح وتدليل ، بيد أن ذلك يحتاج إلى بحث خاص .

من أدب القصة عند دون خوان مانيوبل :

لأدب القصة والرواية الإسباني نصيب موفور من أدب السخرية الذي يتناول بالنقد العادات والتقاليد والأوضاع الاجتماعية ونواحي الشذوذ في الأخلاق و السلوك البشري ، ولا تزال رواية مغامرات " **دون كيشوت** " وتابعه " **سانكوبانزار** " التي كتبها " سرفانتيز " في طليعة الرويات العالمية الحافلة بأدب السخرية و

تعديل من خلال WPS Office

وكتاب " **حوليات السيد** " وهو البطل المعروف في التاريخ الإسباني يحوي الكثير من الأحداث والنوادر والروايات والأساطير التي تدور حول مغامراته ومواقفه البطولية ، واسم هذا البطل الذي اشتهر بلقبه السيد في اللغة الإسبانية " روي ديازدي بيفار " وأصله من مدينة برغش في قشتالة ، وقد نفاه ألفونسو الأول ملك قشتالة في سنة 1081 م لتهم نسبت إليه حينما أرسل إلى إشبيلية لتحصيل الجزية ، وقدم خدماته بعد ذلك لملك سرقسطة المسلم وحارب في صفه دوق برشلونة ، وبدأ يعمل بعد ذلك للاستيلاء على بلنسية ، واستولى عليها بعد حصارها سنة 1049م ([15]) وظل يحكمها حتى وفاته بعد ذلك بخمس سنوات .

ومن أوائل رواد القصة في الأدب الإسباني " **دون خوان مانيويل** "([16]) الذي عاش من سنة 1282 إلى سنة 1348م وهو حفيد الملك فرناند القديس وابن أخي الملك ألفونسو الحكيم ، وقد ولد في نواحي طليطلة وكان سياسياً وجندياً وكاتباً ، وتقوم شهرته الأدبية على كتابه " كونت بوكانور " وهو مجموعة من القصص تهدف إلى عرض أمثلة للمبادئ الأخلاقية .

ومن هذه القصص قصة " الرجل الذي تزوج امرأة سيئة الخلق " – وأرجح أنه كتبها متأثراً باطلاعه على بعض القصص العربية ، والنوادر الشرقية – وقد استهلها بحديث بين الكونت لوكانور ومستشاره باترونياس يوجه فيه لوكانور إلى باترونياس الحديث قائلا ً : « أخبرني أحد أتباعي أنه قد عرض عليه الزواج من امرأة ثرية مكانتها الاجتماعية أسمى من مكانته ، وأن العرض يغري بالقبول ، ولكن هناك مانعاً واحداً فقد أخبرت أن السيدة المذكورة سليطة اللسان ميالة إلى المشاجرة ، وليس لها في ذلك مثيل ، وأريد أن تدلي بنصيحتك فهل أشير عليه بزواجها وهي على ما هي عليه من الصفات أو أن أنهاه عن الاقدام على ذلك ؟».

فقال له " بترونياس : « إذا كان تابعك يشبه ابن السيد المغربي الماثل في ذهني فإني أرى أن تنصحه بزواجها ، ولكن إذا كان لا يشبهه فانصحه بعدم القبول ، فطلب إليه الكونت أن يحدثه عن هذه المسألة ... فاستجاب " بترونياس " ومضى

---

[15]) وليم اتكنسون : تاريخ إسبانيا والبرتغال ترجمة ص 73 .

[16]) دون خوان مانويل دوق وأمير بليانة وسياسي وكاتب إسباني من العصور الوسطي، وُلد في إسكالونا التابعة لمدنية طليطلة في إسبانيا في1282 ، يعد واحدًا من المنظرين الرئيسيين للكتابة النثرية الخيالية في العصور الوسطى، ولا سيما عمله الروائي الكونت وكانور مع مجموعة من القصص الوعظية والتي تتداخل مع أدب الحكمة بكل أشكاله. وتوفي دون مانويل في قرطبة في1348 وتم دفنه في دير سان بابلو في بلدية بينافيل ودون خوان هو ابن الأمير مانويل، شقيق ألفونسو العاشر المعروف بالحكيم، وحفيد فرناندو الثالث، ملك قشتالة في الفترة من عام 1217 حتى عام 1252، وملك ليون في الفترة من 1230 م إلى 1252 م، أنظر :
José María Echazarreta Arzac، Ángel Luis García Aceña (2007). Lengua castellana y literature p;65

تعديل من خلال WPS Office

يروي قصته قائلا ً :« إنه كان يعيش في إحدى المدن رجل له مكانة اجتماعية حسنة ، وكان له ابن شاب له مواهب عظيمة ، ولكن ثروته لم تكن كافية للمساعدة على القيام بما يتطلع إلى تحقيقه من الغايات ، وما يحاول إصابته من بعيد الأ هداف ، ولذلك كان يغلب عليه الحزن والاكتئاب ، لأنه يملك الإرادة وتنقصه الوسائل ».

وفي المدينة نفسها كان يعيش رجل آخر يفوقه كثيراً في سمو المكانة وسعة الثراء ، وكانت أخلاق ابنته الوحيدة على نقيض أخلاق الشاب ، لأنها كانت شديدة الجفوة غليظة الطبع ، وهو رضي الأخلاق حسن الطبع ، ولذلك لم يكن أحد يرغب في الزواج بمثل هذه الفتاة البغيضة .

وفي ذات يوم ذهب الشاب إلى أبيه وقال له أنه يعرف جيداً أنه ليس عنده من المال ما يكفي لمنحه إياه ليعيش كما يريد ، وأنه لما كان ليس هناك مفر من أن يعيش عيشة فقر وحرمان أو أن يبحث عن الثروة في بلاد أخرى ، فإنه قد بدا له إذا وافق والده أنه من الحكمة أن يبحث عن الزواج الذي يتيح له فرصة تحقيق الحالة التي تترامى إليها آماله ويتطلبها طموحه ، وقد أجابه والده قائلا ً أنه لا يدخر جهداً في العمل على تمكينه من أن يتزوج زواجاً مناسباً له ، وحينذاك قال له ابنه أنه إذا وافق فإنه سيتقدم إلى الرجل الواسع الثراء والد الفتاة السيئة الخلق .

ولما سمع والده ذلك اشتد تعجبه وسأل ابنه كيف خطر له ذلك لأن أي رجل يعرفها لا يقبل أن يتزوجها ولو كان متسولا ً ، وبرغم ذلك فإن الابن التمس من و الده أن يعمل على إتمام هذا الزواج ، وكان إلحاحه من القوة إلى حد أن والده وافق برغم تعجبه من إصرار نجله ، وذهب بغير تريث لزيارة الرجل الثري وكانا صديقين قديمين ، وأعاد عليه ما قاله نجله ، وختم حديثه بقوله أنه ما دام ابنه عنده من الشدة ما يمكنه من أن يتزوج ابنته فإنه يطلب منه الموافقة على هذا الزواج .

وحينما سمع والد الفتاة كلمات صديقه قال له : " باسم السماء يا صديقي ماذا تكون مكانتي بين الأصدقاء لو أنني وافقت على ذلك ! إن ابن شاب مهذب حلة الشمائل دمث الأخلاق ، ويعز عليّ أن أكون شريكاً في الاساءة إليه بهذا الزواج الذي ربما أفقده الحياة ، أو جعله يؤثر الموت ولا تحسبني أقول ذلك لأرفض طلبك لأنك إذا طلبت يدها لنجلك فإني أسر لذلك كما أسر إذا تقدم إلى طلب يدها مني أي إنسان آخر ليبعدها عني .

فقال له صديقه يقدر ذلك وأن ابنه عقد العزم على اتمام هذا الزواج ، وأن إصرار ابنه على ذلك يجعله مسروراً إذا وافق صديقه على زواج ابنته .

تم الاحتفال بالزواج ، ونقلت العروس إلى منزل زوجها ، وكان من عادة المغاربة أن يعدوا وليمة للعروسين ويتركونهما منفردين في المنزل إلى اليوم التالي .

تعديل من خلال WPS Office

وتم كل شيء على هذا النمط المألوف وكان والدا العروس والعريس وأمهما وسائر أقاربهما يشعرون بالقلق ويخشون أن يروا العريس في اليوم التالي وقد فقد الحياة أو يجدوه في حالة سيئة من الحزن وخيبة الأمل .

وحيثما انفرد العروسان بالمنزل وجلسا إلى المائدة نظر العريس إلى المائدة وأدار الطرف حولها ، ولمح وجود كلب فقال له بلهجة الامر الناهي : أيها الكلب اذهب واحضر الماء لغسل أيدينا .

فلم يتحرك الكلب ، فاشتد غضب العريس وأعاد على مسامعه الأمر في لهجة شديدة ، ولكن الكلب ظل واقفاً بغير حركة ، ولما رأى الشاب أن الكلب لم يبادر إلى تلبية طلبه قام من مقعده على المائدة وقد غلت مراجله ، وحمي غضبه وجرد سيفه من غمده واتجه إلى ناحية الكلب ولما رآه الكلب قادماً نحوه بدأ يجري و العريس يتبعه ووثبا كلاهما على المائدة والمرقد والأثاث وظل العريس يطارد الكلب حتى ظفر به وقطع رقبته وساقيه ، ومزق جثته إرباً إرباً وتناثر دمه على المائدة والملابس والأقمشة .

وعاد إلى الجلوس على المائدة وقد تملكه الغضب وغشيت الدماء ثوبه ، وأدار الطرف فيما حوله فرأى قطة فأمرها بأن تحضر الماء ليغسلا أيديهما ، ولما لم تستجب له القطة خاطبها قائلا " أهكذا تخالفين الأمر أيتها الخائنة ! ألم ترى ما فعلته بالكلب لأنه لم يطع أمري ؟ وأقسم بالله إنك إذا حاولت اللجوء إلى أساليبك وحيلك في عدم إطاعة الأوامر فإني سأسقيك من الكأس نفسها !

ولم تتحرك القطة لأنه ليس من عادة القطط أن تحضر الماء ، وهي في ذلك مثل الكلاب ، ولما كانت القطة قد خالفت الأمر ولم تنزل على إرادته فإنه ترك المائدة وأمسك بالقطة من ساقيها ودفع بها إلى الحائط وكسر كل عضو في جسدها وكان غضبه على القطة أشد وأكثر اهتياجاً من غضبه على الكلب حينما توقف عن تلبية طلبه والاستجابة لأمره .

وعاد إلى المائدة عابساً متجهماً مزمجراً مدمدماً وأدار الطرف فيما حوله وظنت زوجته التي تراقبه وترى أفاعيله أنه لابد أن يكون قد أصابه مس من الجنون أو أنه قد فقد صوابه ولم تفه بكلمة واحدة .

وأدار الطرف في أنحاء الحجرة فلمح وجود حصان وكان الحصان الوحيد الذي يملكه ، فأمره وهو غاضب أن يحضر الماء ليغسلا أيديهما ، ولم يفعل الحصان ما أمره به فقال له الشاب : يا سيدي الحصان أتحسبني أصفح عنك إذا خالفت أمري لأنني لا أملك حصاناً آخر ؟ لا تنزلق إلى مثل هذا الخطأ لأني أقسم بالله أنك إذا لم تستجب لرغبتي وتطيع ما أمرتك به فإن مصيرك سيكون كمصير الأخرين لأ ني لا أسمح لأي كائن حي أن يخالف أمري ويتحدى إرادتي دون أن يعرض نفسه للهلاك .

تعديل من خلال WPS Office

ولم يتحرك الحصان ، فلما رأى العريس ذلك ابتدر إلى الهجوم عليه وقد اشتعل غضبه وأخذ رأسه ومزق جسمه تمزيقاً .

ولما رأت العروس أنه قتل الحصان الوحيد الذي يملكه وسمعت قوله أنه لا يتردد في قتل كل من لا يطع أمره تأكدت من أنه لا يهزل في قوله ، واستولى عليها خوف شديد إلى حد أنها لم تعرف أهي في الحياة أم في الأموات ، وعاد إدراجه إلى المائدة دون أن تهدأ ثورة غضبه ، وقد سال الدم على ثيابه وأقسم أنه لو كان يملك ألف حصان أو ألف رجل أو امرأة في منزله ورفضوا القيام بما يأمرهم فإنه لا يتأخر عن أن يضع حداً لحياتهم .

وجلس وأدار الطرف فيما حوله وسيفه يقطر دماً ، وبعد أن أجال الطرف في كل محتويات الحجرة ألقى على زوجته نظرة غاضبة ، وقال لها بلهجة خشنة و السيف في يده " قومي واحضري لي ماء لأغسل يدي ؟

فوثبت العروس التي كانت تتوقع أن يشرح جسمها في أية لحظة وأحضرت له المياه فقال لها " أحمد الله لأنك فعلت ما أمرتك به ، لأنك لو كنت خالفت الأمر وأنا في حالة الغضب الذي أثارته في نفسي هذه الحيوانات الغبية لكنت أقدمت على أن أصنع بك ما صنعته بهم .

وأمرها بعد ذلك بأن تجهز له الطعام ، فقامت بذلك وفي كل مرة كان يتحدث إليها في لهجة غاضبة منذرة ، وكانت تشعر بأن رأسها يتدحرج في التراب .

وقضيا الليل على هذه الوتيرة ولم تنطق بكلمة ، ولكنها كانت تسارع إلى عمل كل ما يأمرها به ، وبعد أن ناما قليلا ً قال لها " الغضب الذي عانيته هذه الليلة جعلني لا أستطيع أن أغمض جفني ، وعليك ألا تسمحي لأحد غداً بإيقاظي من النوم وأن تجهزي لي الطعام .

ولما أشرقت الشمس في كبد السماء حضر الوالدان والأقارب إلى المنزل ، ولما لم يسمعوا صدى لأي صوت خطر ببالهم أن العريس لابد أن يكون قد لقي حتفه ، أو أن يكون قد جرح ، ولما نظروا خلال الباب وجدوا العروس في حركة دائبة ، ولم يروا العريس فقويت الظنون التي طافت بأذهانهم .

ولما رأتهم العروس على الباب أقبلت على أطراف أصابعها وقد شحب وجهها من الخوف وبدأت لهم : أيها المجانين الخونة ماذا تصنعون ؟ وكيف اجترأتم على القدوم إلى الباب ورفعتم أصواتكم .. التزموا الصمت وإلا قتلنا جميعاً أنتم وأنا .

وحيثما سمعوا ذلك ذهلوا ، ولما علما بما حدث في تلك الليلة اشتد إعجابهم بالشاب الذي عرف كيف يتناول الموقف بحكمة ، ويلزم بيته هذا التنظيم المحكم ، ومنذ ذلك اليوم صارت زوجته مثلا ً يقتدى به في حسن السلوك وعاشا معاً عيشة سعيدة .

تعديل من خلال WPS Office

وحدث بعد أيام قليلة أن أراد والد العروس أن يتشبه بالعريس فذبح دجاجة وقطع لحمها كما فعل زوج ابنته ... ولكن زوجته قالت له: يا سيدي لقد فتحت عينيك متأخراً ولا يجدي عليك الآن شيئاً ذبحك مائة حصان وكان عليك أن تحاول ذلك منذ زمن طويل مضى لأننا يعرف كل منا الآخر معرفة جيدة .

و هكذا يا سيدي إذا كان تابعك الذي يريد أن يتزوج مثل الشاب الذي وصفته لك فاخبره بأن يتقدم بغير تريث لأنه سيعرف كيف يدبر أمور منزله ، إذا كان من الصنف الذي لا يعرف ما يجب عليه عمله وكيف يقوم به فما عليك إلا أن تنصحه بأن يعرض عن الزواج ، وإني أنصحك بأن تجعل الناس الذين تتعامل معهن يعرفون كيف يتصرفون معك .

ورأى الكونت أن هذه النصيحة صادقة ولما عمل بها أصبحت اموره سائرة في طريق التقدم والنجاح المستمر .

الفروسية العربية وأثرها في أوروبا :

ذكر ابن قيم الجوزية : الفروسية أربعة أنواع : أحدها ركوب الخيل والكر و الفر بها ، والثاني الرمي بالقوس ، والثالث المطاعنة بالرماح ، والرابع المداورة بـ السيف ، فمن استكملها استكمل الفروسية .

وكما لعبت الفروسية دوراً رائعاً في ميادين القتال عند العرب ، فقد كانت من أعرق ضروب الرياضة ، وأظفرها بتشجيع الخلفاء ، في زمن السلم ، وكان سباق الخيل من أعرق ضروب الرياضة التي لقيت كل عناية وتشجيع من الخلفاء وخاصة من معاوية بن أبي سفيان ، وهشام بن عبد الملك ، وقد بلغ من شغف هشام بالخيل وسباقها ، أنه أقتني وحده أربعة آلاف فرس ، ولم يسبقه أحد من العرب إلي ذلك . ومن ميادين السباق التي أخذها التاريخ ميدان الرصافة في عصر الأمويين ، وميدانا الرقو الشماسية في عصر العباسيين ، وميادين الحكم بالأندلس ، وأحمد بن طولون وبيبرس في مصر .

ومن أشهر ألعاب الفروسية لعبة الكرة والصولجان أو الجوكان ، وكانوا يتقاذفون منها كرة خفيفة بعصي عقفاء ، تبلغ الواحدة منها أربعة من الأذرع طولا ً ، وهم علي صهوات الخيل.

ويروي أن الرشيد كان أول من عشق تلك اللعبة من الخلفاء ، ولم يكن الخليفة المعتصم أقل منه إقبالا عليها ، ولم تلبث أن أصبحت اللعبة المفضلة عند القادة والأمراء ، وكانت تلك اللعبة معروفة عند العرب قبل الإسلام ، ولكن في أضيق نطاق ، وكان من النابغين فيها الشاعر العربي عدي ابن زيد ، وقد انتقلت تلك اللعبة في العصور الوسطي إلي البلاد الأوروبية عن طريق مصر ، وصارت تسمي في مقاطعة لانجدوك Langue doc بفرنسا La Chicane أي الجوكان ولم تلبث أن تطورت نحو لعبة (البولو) الحالية.

كانت للفروسية العربية آداب نبيلة ، تجمع بين النخوة والشرف والرحمة و التقي والإقدام ، وقد خلب الفرسان العرب بآدابهم هذه ألباب الشعوب الأوروبية ،

تعديل من خلال WPS Office

في القرون الوسطي ، سواء عن طريق الحروب الصليبية في الشرق أو عن طريق ا لأندلس ، وقد تحدث المؤرخ الفرنسي جوستاف لوبون في كتابه : حضارة العرب " عن قواعد الفروسية عندهم قال :

للفروسية العربية شروطها ، كما للفروسية الأوروبية التي ظهرت بعدها ، فلم يكن المرء يعد فارساً إلا إذا تحلي بهذه الصفات العشر : الصلاح ، والكرامة ـ ورقة الشمائل ، والعزيمة الشعرية ، والفصاحة ، والقوة ، والمهارة في ركوب الخيل ، و المقدرة علي استعمال السيف والرمح والنشاب ، وقال أيضاً : وكان لعرب أسبانيا با لإضافة إلي تسامحهم العظيم ، يتصفون بالفروسية المثالية ، فيرحمون الضعفاء ، ويرفقون بالمغلوبين ، ويقفون عند شروطهم ، وما إلي ذلك من الخلال التي اقتبستها الأمم المسيحية بأوروبا عنهم مؤخراً .

وقال المؤرخ الفرنسي "بارتملي هيلر" في كتابه " محمد والقرآن " وأخذ فرساننا عن العرب أرق العواطف وأنبلها وأرحمها ، من غير أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم ، حتى أني لا شك في أن تكون النصرانية وحدها هي التي أوحت إليهم بذلك مهما بولغ في كرمها .

وذكر "رنول " في كتابه " تاريخ الجيش الفرنسي " أن الأوروبيين أخذوا عن العرب فكرة الفرسان الملثمين ، كما أخذوا عنهم فكرة الفرسان المجردين من الدروع والأسلحة الثقيلة ، وينسب (**سيديو**) إلي العرب ابتكار قصص الفروسية التي انتشرت من بعدها في إسبانيا ، وما كان يتبع ترديها من رقص وغناء .

ومما روي عن نبل الفرسان العرب ، وتعففهم عن إيذاء الضعفاء ، والتعرض للنساء ، ما حدث سنة 1139 م عندما حاصرت جماعة منهم إحدى القلاع الأسبانية وكانت توجد بها ملكة قشتالة زوجة الملك الفونسو السابع ، فأرسلت إليهم تعاتبهم علي مهاجمة قاعة تدافع عنها امرأة ، فمس فيهم ذلك العتاب وتراً حساساً ، وألهبت نخوتهم العربية ، فاكتفوا بأن التمسوا منها أن تطل عليهم من شرفتها ، فلما فعلت، قدموا لها أسمي ضروب الاحترام ، وفكوا عنها الحصار ، ورحلوا علي الفور .

ملوك أوروبا يستخدمون الفرسان العرب :

وقد بلغ من إعجاب ملوك أوربا وأمرائها بالفرسان العرب ، أن تهافتوا علي استخدامهم وتعزيز جيوشهم بهم ، فاشتراك أولئك الفرسان في المعارك التي دارت بين دولهم وإماراتهم ، وعندما استخدم أهالي نابلي جماعة من أولئك الفرسان في قتالهم مع دوقات (بنيثان) سعي أولئك الدوقات إلي استخدام فرسان من العرب أيضاً في جيوشهم ، وعندما أراد الإمبراطوران اليونانيان باسيل وقسطنطين نفوذهما في إيطاليا ، استخدما في جيشهما عدداً من الفرسان العرب ، فحاربوا تحت لوائهما الإمبراطور الألماني أوتون الأول وخلفه ، فحققوا نصراً ساحقاً في موقعة بازنتيو التي أعادت حكم جنوب إيطاليا إلي اليونان ، وذكر المؤرخ موراتوري أن أولئك الفرسان هم الذين كسبوا المعركة حقاً ، وأنهم كانوا سادة ساحة القتال المتحكمين فيها طوال المعركة .

وقاتل الفرسان العرب الفرنسيين في صفوف الأراجونيين ، في أواخر القرن

تعديل من خلال WPS Office

الثالث عشر ، وأوائل القرن الرابع عشر ، فأبلوا أحسن البلاء ، وحدث أن أسر الفرنسيون أحدهم فأرسلوه إلي قائدهم كإحدى الأعاجيب فما أن مثل بين يديه ، حتى طلب من القائد بكل شجاعة أن يتح له وهو مترجل ، ولا يحمل غير سيفه ، مبارزة أكفأ فرسانه وهو راكب ومزود بكل أسلحته ، وممتط صهوة جوادة ، فقبل القائد وأخرج إليه أحد أبطاله ، فلم يلبث أن صرعه بعد قليل ، رغم تفاوت ظروفهما ـ ولما علم ملك الأرجوانيين بتلك الحادثة رضي أن يفرج عن كل عشرة من أسرى الفرنسيين ، لقاء كل أسير واحد من فرسان العرب .

تعديل من خلال WPS Office

أهم المصادر و المراجع :

أولا ً القرآن الكريم

جودة هلال : قرطبة في التاريخ الإسلامي ، وزارة الثقافة ، القاهرة 1962

جورج سارتون : تاريخ العلم ج3 ، دار المعارف ، القاهرة 1971

جوزيف نسيم يوسف : معالم العصور الوسطى في النظم و الحضارة ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية 1990

حسين مؤنس : فجر الأندلس

ـــــــــ : معالم تاريخ المغرب والأندلس

د جاء عيد : التجديد الموسيقي في الشعر العربي ، دراسه تاصيليه تطبيقيه بين القديم والجديد لموسيقى الشعر العربي ، م ن شأة المعارف ، الإسكندرية 1994

علي الخربوطلي : العرب في أوروبا ، الدار المصرية للتأليف و الترجمة 1965

محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، الآثار الأ ندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ج 8 ، مكتبة الخانجي 2003

محمد عبد العزيز مرزوق : قصر الحمراء ، الدار المصرية العامة للكتاب

محمود المقداد : تاريخ الدراسات العربية في فرنسا ، عالم المعرفة ، الكويت 1992

وليم اتكنسون : تاريخ إسبانيا والبرتغال

José María Echazarreta Arzac، Ángel Luis García Aceña (2007). Lengua castellana y literature p;65

تعديل من خلال WPS Office